﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ۝١٠ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝١١﴾ [لقمان: 10 - 11]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلَهُما:

سَوْقُ أدِلَّةِ إتْقانِ أفْعالِ اللهِ تَعالى وإحْكامِها

لمّا ختَم اللهُ سُبْحانَهُ الآيةَ المُتَقدِّمة باسْمَيْهِ الجَليلَيْنِ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ و﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ وما يَتَضَمَّنانه مِن صِفَتَي العِزَّة - وهيَ غايةُ القُدْرَة - والحِكْمَة - وهيَ ثمرَةُ العِلْم -؛ أعقبَهُ ببيانِ ما دَلَّ علَيْهِما مِن إتْقانِ أفْعالِه وإحْكامِها، فقالَ ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ الآية[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَمَدٖ﴾: (عمد) تَدُلُّ تَصْريفاتُها عَلى اسْتِقامةٍ في شيءٍ على وجهِ الانْتِصابِ أوِ الامْتِداد، يُقال: عَمَدْتُ الشَّيءَ؛ أي: أسْنَدْتُه، والشَّيْءُ الذي يُسنَدُ إليه يُسمّى: عِمادًا، والجمع: عُمُدٌ، ويُقال أيضًا: عَمودٌ، والجمعُ: عَمَدٌ[2]، ومِنَ البابِ: العَمْدُ وهُو ضِدُّ الخطأ؛ سُمّي بذلك لأنَّ فيهِ قَصْدًا لِلشَّيء واسْتِنادًا عليه[3]، وقولُ اللهِ تَعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ أي: خَلَقها مَرْفوعةً بغَيْرِ شَيْءٍ تَسْتَنِدُ إليهِ[4]، وذلك بناءً على تمامِ الوقفِ عِنْدَ ﴿عَمَدٖ﴾[5].

2) ﴿رَوَٰسِيَ﴾: (رسا) تَدورُ اشْتِقاقاتُها عَلى مَعْنى الثَّبات،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 152.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عمد).
(3) الرّاغب، المفردات: (عمد).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عمد).
(5) ابن الجوزيّ، تذكرة الأريب في تفسير الغريب، ص: 178.

يُقال: رَسا الشَّيء يَرْسو؛ إذا ثبَتَ، وأرْسى اللّهُ تَعالى الجبالَ؛ أي: أثْبَتها[1]، والرَّواسي مِنَ الجِبال: الثَّوابت الرَّواسِخ[2]، ومنهُ قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾.

3) ﴿تَمِيدَ﴾: (ميد) تَدُلُّ تَصْريفاتُها عَلى أصْلَيْنِ كُلِّيَّيْنِ؛ أحَدُهما: حركَةٌ في شَيْءٍ، والآخَرُ: نَفْعٌ وعَطاءٌ، ومِنْهُ قولُهُم: مادَ، أي: أطْعَمَ ونفعَ، ومنهُ سُمّيتِ المائدةُ مائدةً[3]، ومِنَ الأوَّل: المَيْدُ؛ وهُو الحركَةُ والمَيَلُ، ومنهُ قَوْلُهُم: فلانٌ يَميدُ في مِشْيَتِه؛ إذا تَكَفَّأ[4]، وخصَّ الرّاغِبُ المَيْدَ: باضْطِرابِ الشَّيء العَظيم، كاضْطِرابِ الأرْض[5]، وقولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي: لئَلّا تَضْطَرِبَ بِكُم الأرْضُ.

4) ﴿وَبَثَّ﴾: (بث) تدورُ تَصاريفُها على مَعْنى تفريقِ الشَّيْءِ وإظْهارِه[6]، ومنهُ قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾ [الغاشية: 16]، فإنَّ مَعْناه: مُفَرَّقةٌ في مَجالِسِهم[7]، وقال الفَرّاءُ: هيَ الكثيرَةُ[8]، وهَذا لازِمُ التَّفريقِ غالبًا، وقولُ اللّهِ تَعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ أي: فَرَّقهُم في الدُّنيا[9].

5) ﴿دَآبَّةٍ﴾: (دب) تَدُلُّ اشْتِقاقاتُها على حركَةٍ عَلى الأرْض هيَ أخفُّ مِنَ المَشْي، ومنهُ قولُهُم: دَبَّ دَبيبًا[10]، والدَّبُّ: المَشْيُ الخَفيفُ[11]، والدّابَّةُ: كُلُّ ما مَشى عَلى الأرْض[12]، وتُطْلَقُ عَلى ما كانَ يَعْقِلُ مِنْها وما لا يَعْقِل[13].

6) ﴿زَوْجٍ﴾: (زوج) تَدورُ تَصْريفاتُها عَلى مُقارنَةِ شَيْءٍ لِشَيْءٍ[14]، ومنهُ قَوْلُهم لِكُلِّ واحدٍ مِن القَرينَيْنِ مِنَ الذَّكر والأُنْثى في الحَيواناتِ المُتزاوِجَة: زوجٌ، ولِكُلِّ قَرينَيْن فيها وفي غَيْرِها:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رسى).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (رسا).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ميد).
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 242.
(5) الرّاغب، المفردات: (ميد).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بث).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بث).
(8) الفرّاء، معاني القرآن: 3/ 258.
(9) أبو عُبيد الهرويّ، الغريبين: (بث).
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دب).
(11) الرّاغب، المفردات: (دب).
(12) الجوهريّ، الصّحاح: (دبب).
(13) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (دب).
(14) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زوج).

زَوْجٌ، كالنَّعْلِ والخُفِّ[1]، والزَّوْجُ: الجِنْسُ والصِّنف، ومنهُ قولُ اللهِ تَعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٖ﴾ أي: مِن كُلِّ جِنْسٍ حَسَنٍ[2].

7) ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾: (دون) تدُلُّ تَصْريفاتُها عَلى مُداناةٍ ومُقاربَةٍ، يُقال: هَذا دونَ ذاكَ، أيْ: هُو أقْرَبُ مِنْهُ[3]، ويُقالُ لِلقاصِرِ عَنِ الشَّيْءِ: دُوْنٌ، ومنهُ قولُ اللهِ تَعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ﴾ [آل عمران: 118]، أي: مِمَّن لَم تَبْلُغ مَنْزِلَتُه مَنْزِلَتَكُم في الدّيانة، وقولُ اللهِ سُبْحانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النّساء: 48]، أي: ما كانَ أقَلَّ مِن ذلكَ، وقيل: ما سِوى ذَلِكَ، والمَعْنيانِ مُتَلازِمان[4]، ويَرِدُ (دون) بِمَعْنى (غَير)، ومنهُ قولُ اللهِ ﷻ: ﴿فَأَرُونِيَ مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

خلقَ اللهُ تعالى السَّماواتِ، ورَفَعَها بِغَيْرِ عمَدٍ كما تُشاهِدونَها، وألقى في الأرْضِ جِبالًا ثابِتَةً راسِخَةً؛ لِئَلّا تَضْطَرِبَ بِكُمُ الأرضُ وتتَحَرَّكَ فَتَفْسُدَ حياتُكُم، ونَشَرَ في الأرضِ مُخْتَلَفَ أنواعِ الدَّوابِّ، وأنزَلَ مِنَ السَّحابِ مَطَرًا، فأنْبَتَ بِهِ مِنَ الأرْضِ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهيجٍ نافِعٍ حسَنِ المَنْظَرِ، وكُلُّ ما تُشاهِدونَهُ هُو خَلْقُ اللهِ سُبحانَهُ، فَأَروني - أيُّها المُشْرِكونَ -: ماذا خَلَقَتْ آلِهَتُكُم التي تَعْبُدونَها مِن دونِ اللهِ سُبحانَهُ؟ بَلِ المُشْرِكون في ذَهابٍ بَيِّنٍ عَنِ الحَقِّ والاسْتِقامَةِ[5].

مِـنْ مَـظـاهِـرِ عِـزَّةِ اللهِ تَعالى وحِـكْـمَـتِـهِ دِقّـةُ الخَلْقِ وإتقانُه

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نُكْتَةُ فَصْلِ الآيَةِ عَمّا قَبْلَها:

فُصِلَ قولُ اللهِ تَعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ عَمّا

دَلائِـلُ عِـزَّةِ اللـهِ سُبْحانَهُ وحِكْمَتِهِ

(1) الرّاغب، المفردات: (زوج).
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 713.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دون).
(4) الرّاغب، المفردات: (دون).
(5) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 411.

قَبْلَهُ؛ لِوُقوعِهِ اسْتِئْنافًا نحويًّا مَسوقًا للاسْتِشْهادِ بِما فُصِّل فيهِ على عزَّتِهِ وحِكمتِه، وفيه تَمْهيدٌ لقاعِدَةِ التَّوحيدِ وتقريرِه، وإبطالُ أمْرِ الشِّركِ وتبكيتُ أهلِهِ[1]، ويمكنُ أنْ يكونَ الفصلُ دالًّا على أنَّ آياتِ هذا الكتابِ الحكيمِ مذكورةٌ للجميع، فهي هدًى ورحمةٌ للمحسنين؛ إذ يتأمَّلونها ويُدركون أنَّ لهذه المخلوقاتِ العجيبةِ المُتحدَّثِ عنها خالِقًا عزيزًا حكيمًا، وأنَّ الآخَرين عندما يَسمعونها يتهكَّمونَ بها، ولا ينتفعونَ بمضامينِها، فذكرَ الآياتِ التي سبقَ التّنويهُ بانقسامِ النّاسِ إزاءَها إلى فريقين: مُؤمنٍ وكافرٍ.

نُكْتَةُ خُلُوِّ الآيَةِ مِنَ التَّوْكِيدِ:

الاحْتِجاجُ عَلى إفْرادِ اللهِ تَعالى بِالعِبادَةِ

سيقَ قولُ اللهِ تَعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ دونَ تَوْكيدٍ؛ وذَلِكَ لأنَّهُ لا أحدَ يدَّعي أنَّه خَلَقَ السَّماواتِ أو شاركَ في خَلْقِها، فالنّاسُ كُلُّهم مَفْطورونَ على الإقْرارِ بِخالِقِهم ﷻ، إلّا مَن أنْكَر ذلكَ عَلى وجْهِ المُكابرةِ، فَفي تَرْكِ التَّوْكيدِ إيماءٌ إلى أنَّ ما ذُكِرَ أمْرٌ مُسَلَّمٌ به، فيَصِحُّ بذلكَ الاحْتِجاجُ بالمُتَّفَقِ عليهِ عَلى المُخْتَلَفِ فيهِ، وهُو إفْرادُ اللهِ تعالى بالعِبادَةِ.

مَعْنى (أل) في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

الإيماءُ إلى عُمومِ السَّماواتِ وعُمومِ بِقاعِ الأرْضِ

(أل) في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلْأَرْضِ﴾ من قولِ اللهِ ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾، هي لامُ الجِنسِ المفيدَةُ عمومَ السَّماواتِ وعُمومَ بقاعِ الأرضِ المُنْدَرجةِ في لَفْظِها، فاللَّفْظانِ شامِلانِ لكلِّ ما يَصْدُق عليهما مِن مَعْنًى، فيدخُلُ في لفظِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ السَّماواتُ السَّبْعُ، وفي لَفْظِ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ الأرضُونَ السَّبْعُ كُلُّها.

نُكْتَةُ جَمْعِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإفْرادِ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

اخْتارَ النَّظْمُ القُرآنيُّ التَّعبيرَ بالسَّماواتِ جَمْعًا في قولِهِ تَعالى:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 152، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 70، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 80.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾؛ لأنَّ المقصودَ بها ذواتُ السَّماواتِ بأعْدادِها الكثيرَةِ، والسَّماواتُ هيَ مَقَرُّ الملائكَةِ ومَحَلُّ دارِ الجزاءِ، ومَهْبِطُ المَلائكَة والوَحْيِ، بخِلافِ ما إذا أُريدَ جِهَةُ العُلُوِّ؛ فإنَّها تَرِدُ مُفْرَدَةً[1]، ولَمْ تَرِدْ لفظَةُ (الأرْض) مجموعَةً في القرآنِ الكريمِ مُطْلقًا، ومِنْها قولُهُ تَعالى: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾، فإنَّ السَّماءَ إذا ذُكِرَت مجموعَةً جيءَ بلفظِ الأرض مُفْرَدًا في جميعِ مواضِعِها، وعُدِلَ عن الجَمْعِ لِثِقَلِه، والجُسْأةُ[2] التي تعرِضُ للَّفْظِ، حتَّى إنَّ النَّظْمَ لَيخْتَلُّ بسببِ ذلك[3].

السَّماواتُ مَقَرُّ المَلائِكَةِ ومَحَلُّ دارِ الجَزاءِ

نُكْتَةُ تَقْديمِ خَلْقِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ عَلى الإلْقاءِ في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

قُدِّم ذِكر السَّماواتِ عَلى الأرْضِ في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾؛ لاقْترانِهما في سياقِ ذِكْرِ الدَّليل عَلى رُبوبيَّة اللهِ تعالى ووحدانيَّته، ومعلومٌ أنَّ الآياتِ في السَّماواتِ أعظَمُ مِنْها في الأرضِ؛ لِسَعَتِها وعِظَمِها، وما فيها مِن كَواكِبِها وبُروجِها، واسْتِغْنائِها عَن عَمَدٍ تُقِلُّها أو عِلاقة تَرْفَعُها، ولِهَذا أمَرَ اللهُ سُبْحانَهُ أن يُرْجِعَ البَصَرُ فيها كَرَّةً بعدَ أُخْرى، ويُتأمَّلَ استواؤُها واتِّساقُها، وبراءَتُها مِنَ الخَلَلِ والفُطور؛ فكانَتِ الآيةُ فيها أعْظَمَ مِنَ الأرْضِ[4].

الآيَةُ في السَّماواتِ أعْظَمُ مِنْها في الأرْضِ

مَعْنى الباءِ في قوله: ﴿بِغَيۡرِ عَمَدٖ﴾:

الباءُ في ﴿بِغَيۡرِ عَمَدٖ﴾ من قولِ اللهِ ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ دالَّةٌ عَلى المُصاحبَةِ، أيْ: أنَّ خَلْقَ السَّماواتِ وقَعَ مُصاحِبًا لِنَفْيِ العَمَدِ عَنْها، فلَمْ تُخْلَق بعَمَدٍ ثُمَّ بَعْدَ اسْتِقْرارِها أُزيلَ ذَلِكَ العَمَد، بَل نَفْيُ العَمَدِ عَن السَّماوات حاصِلٌ مِن أوَّلِ وقْتِ خَلْقِها.

نَفْيُ العَمَدِ عَنِ السَّماواتِ حاصِلٌ مِنْ أوَّلِ وقْتِ خَلْقِها

(1) عبد الفتاح لاشين، صفاء الكلمة، ص: 121 - 122.
(2) من جسأ، وهو يدلُّ على صلابة وشدّة، ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جسأ).
(3) الرّافعيّ، إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، ص: 160.
(4) عبد الفتاح لاشين، صفاء الكلمة، ص: 214 - 125.

المَوْقِعُ النَّحْويُّ لقوله: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾:

مُقارَنَةُ انْتِفاءِ العَمَدِ لِخَلْقِ السَّماواتِ

الجارُّ والمَجْرورُ ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ مِن قولِ اللهِ تَعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ في مَوْضِعِ نَصْبٍ على الحالِ[1]، والمَعْنى: خَلَقَ السَّماواتِ خاليةً مِن عمدٍ، والأصلُ أنَّ الحالَ مُقارِنَةٌ لِعامِلِها في الزَّمن، فأفادَ ذَلِكَ أنَّ خَلْقَها مِن غَيْرِ عَمَدٍ واقِعٌ ابتداءً.

نُكْتَةُ تَنْكيرِ ﴿عَمَدٍ﴾:

خُلُوُّ السَّماواتِ مِنْ أيِّ عَمَدٍ مُطْلَقًا

نُكِّر لَفْظُ ﴿عَمَدٍ﴾ مِن قولِ اللهِ ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾؛ لإفادةِ العُمومِ، وذلكَ لِوُقوعِها في سياقِ النَّفي بـ (غَيْر)، وذلكَ يَقْتَضي خُلُوَّ السَّماواتِ مِن أيِّ عَمَدٍ مُطْلقًا، أو مِنْ أيِّ عَمَدٍ مَرْئيَّة على الإطْلاقِ.

دلالة التعبير بقوله: ﴿تَرَوْنَهَا﴾:

كَوْنُ السَّماواتِ مَخْلوقَةً مِنْ غَيْرِ عَمَدٍ أصْلًا أدَلُّ عَلى عَظَمَةِ القُدْرَةِ الإلَهيَّةِ

جُمْلَةُ ﴿تَرَوْنَهَا﴾ مِن قولِ اللهِ ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ يجوزُ أن تَكونَ في مَحَلِّ جرٍّ صفةً لـ ﴿عَمَدٍ﴾، أو تكونَ جُمْلَةً مُسْتَأنفةً، فَعَلى الأوَّلِ؛ يكونُ المَعْنى: خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ مَرْئيَّةٍ لَكُم، فيكونُ النَّفْيُ مُتَسَلِّطًا عَلى العَمَدِ المَرْئيَّة، وذلك يُفْهِمُ أنَّ لها عمَدًا، إلّا أنَّها غيرُ مَرْئيَّة لنا، وكَوْنُها لا تُرى أدخلُ في الحِكْمَةِ وأدَقُّ في اللَّطافَةِ والعَظَمَةِ؛ لاحْتياجِ مِثْلِ هذا الخَلْقِ إلى عَمَلَيْن: تَخْفيفِ الكَثيفِ، وتَقْويَةِ اللَّطيفِ، وعَلى الآخَرِ؛ يكونُ المَعْنى: خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ مُطْلَقًا، والدَّليلُ عَلى ذَلِكَ أنَّكُم تَرَوْنَها كذلكَ لا عَمَدَ لها؛ إذْ لَو كانَ لها عَمَدٌ لكانَتْ مَرْئيَّةً في الغالِبِ، وهَذا أدَلُّ عَلى عَظَمةِ القُدْرَةِ الإلَهيَّة؛ إذْ كانَ مِثْلُ هَذا الخَلْقِ الكبيرِ الواسِعِ يُحْمَلُ بِمَحْضِ القُدْرَةِ[2].

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 532.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 152 - 153، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 70، والقِنَّوجي، فتح البيان: 10/ 279، وابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطيّة: 1/ 382.

فائِدَةُ عَطْفِ قَوْلِهِ: ﴿وَأَلْقَىٰ﴾:

بَيانُ الأوتادِ المُقِرَّةِ بَعْدَ بَيانِ العَمَدِ المُقِلَّةِ

لَمّا ذكَرَ اللّهُ تَعالى العَمَدَ المُقِلَّةَ في قولِهِ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾؛ أعْقَبَهُ ببَيانِ الأوتادَ المُقِرَّة بقولِه: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾[1]، وعَطَفَ ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على الجُمْلَة قَبْلَها؛ لِما بَيْنَهُما مِنَ التَّوسُّط بينَ الكَمالَيْن؛ لاشْتِراكِهما في الخَبَريَّة، وتَوافُقِهما في الفعليَّةِ والماضَويَّة، واتِّحادِهما في المُسْنَدِ إليهِ وهُو الضَّمير المُسْتَتِر في الفِعْلَيْن ﴿خَلَقَ﴾ و﴿وَأَلۡقَىٰ﴾ العائد إلى اللّهِ سُبْحانَهُ، فيكونُ بينَهما جامعٌ عقليٌّ.

ولم يُعبّر النّظمُ الجليل هنا وفي سورة الرعد بـ (وخلقَ الأرضَ وألقى) أو (خلق الأرض ومدّها)؛ للدّلالةِ على أنَّ الأرض واحدةٌ منَ السَّماوات المخلوقةِ، وأنَّها عندَ خلقِها لم يكن لها عمدٌ مرئيّة؛ ففي المَوطنين عندما تُوصَفُ السَّماوات بأنّها مخلوقةٌ بغيرِ عَمَدٍ مَرئيّة لا يُعبِّرُ النّظمُ عن خَلْقِ الأرض حتَّى لا يُتوَهَّمَ أنَّها متّصفةٌ بالعَمَد المَرئيّة بقرينةِ المقابلةِ.

دلالَةُ تَعْدِيَةِ الإلْقاءِ بِحَرْفِ الجَرِّ ﴿فِي﴾:

غَـوْصُ الجِبالِ في أعْماقِ الأرْضِ واسْتِقْرارُها في مَكانِها

حَرْفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ من قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾ دالٌّ على الظَّرْفيَّة، وفي تَعْديَةِ فِعْلِ الإلْقاءِ بِهَذا الحَرْفِ إيماءٌ إلى تَلَبُّس الرَّواسي بالأرْضِ، وأنَّها تَغوصُ في أعْماقِها، وأنَّها ثابِتَةٌ مُسْتَقِرَّة في مَكانِها[2].

نُكْتَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

الامْتِنانُ بِالأرْضِ هُوَ الأصْلُ

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ من قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾؛ لإرادة الاهتمام بالمُقدَّم؛ إذِ المِنَّةُ بالأرضِ هُوَ الأصلُ، وأمّا الرَّواسي فَمِن تَوابِعِ ذَلِكَ وتَمامِ الانْتِفاع بِها، ولا يدلُّ التّقديمُ على حصرِ خَلْقِ الرَّواسي في الأرضِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 153.

(2) علي، سورة لقمان دراسة بلاغيّة، ص: 1577.

بَلاغَةُ المَجازِ:

الجِبالُ مِنْ تَوابِعِ الأرْضِ وتَتِمّاتِها

في قَوْلِ اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ مجازٌ مرسلٌ علاقتُهُ المُسبَّبيَّة، وذلكَ في التَّعْبيرِ عَن خَلْقِ الجِبالِ في الأرْضِ بالإلْقاءِ، إذ أصْلُ الإلْقاءِ رَمْيُ شَيْءٍ على الأرضِ، وذلكَ لأنَّ الجِبالَ مَجْعولةٌ كالتَّكملَةِ للأرضِ؛ إذْ هيَ موضوعَةٌ في ظاهِرِ سَطْحِها بِحَسَبِ ما يَبينُ للنّاظِرِ[1]، وإنَّما ارتُكِبَ المجازُ لدلالةِ الرّمي من فوق على الغَرسِ في الأرضِ حتّى تُمسِكَ أجزاءَها عنِ الحركةِ والاضطراب، كما تُوحي دلالةُ الإلقاءِ والسُّقوط من عُلُوٍّ على التّمدُّد في الأرض وأخذِ مساحةٍ فيها.

دلالَةُ الإيجازِ:

الاقْتِصادُ في اللَّفْظِ اكْتِفاءً بِدِلالَةِ الحالِ

﴿رَوَٰسِيَ﴾ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ جمعُ: راسٍ، وهُو مأخوذٌ مِنَ الرُّسُوِّ؛ وهو التَّمكُّنُ والثَّباتُ والاسْتِقْرارُ في المَكانِ، والمَعْنى: وألْقى في الأرْضِ جِبالًا رَواسيَ، فَحُذِفَ المَوْصوفُ وأُقيمَتِ الصِّفَةُ مُقامَهُ؛ لِظُهورِ المَعْنى، فاقْتُصِدَ في اللَّفْظِ اكْتِفاءً بِدِلالَةِ الحالِ، فَهُوَ كَقَوْلِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ﴾ [الرّحمن: 24] أي: السُّفُنُ الجَواري[2].

المَوْقِعُ النَّحْويُّ لِقَوْلِهِ: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾:

مَقامُ الامْتِنانِ قَرِينَةٌ عَلى تَعْيينِ المَحْذوفِ

﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ من قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ في محلّ نصبٍ مفعولٌ لَهُ[3]، وفي الكَلامِ حَذْفٌ تَقْتضيهِ القرينةُ؛ إذِ المَقامُ مقامُ امْتِنانٍ، وذلكَ دالٌّ على أنَّ المُعَلَّل به هو انتفاءُ المَيْد لا وُقوعُه، والتَّقدير: وألْقى في الأرضِ رَواسي لِئَلّا تميدَ بِكُم، أو أنَّ الكلامَ عَلى حَذْفِ مُضافٍ بينَ الفِعْلِ المُعَلَّل و﴿أَن﴾، والتَّقديرُ: وألْقى في الأرضِ رَواسيَ كَراهيَة أن تَميدَ بِكُم[4]، وفي تعليلِ خَلْقِ

(1) علي، سورة لقمان دراسة بلاغيّة، ص: 1577.
(2) علي، سورة لقمان دراسة بلاغيّة، ص: 1577.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 532.
(4) علي، سورة لقمان دراسة بلاغيّة، ص: 1578.

الرَّواسي ما يدعو إلى التأمُّل في خلقِ الأشياء ومنافعِها، وأنَّ عزيزًا حكيمًا أوجدَها لتحقيقِ مصالحَ للعباد، ولتكونَ دليلًا عليه عندَ المؤمنين، ومثارًا للهُزءِ والتّهكُّم عندَ الكافرين، واختارَ المصدرَ المؤوّلَ ليكونَ مفعولًا له بدلَ الصّريح؛ لما فيه من دلالةِ الاستقبالِ والتّجدُّد.

عَوْدُ الضَّمائِرِ في قَوْلِهِ: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾:

المَجْرورُ بالباءِ مَعَ فِعْلِ المَيَدِ هُوَ الأَمْرُ المُسْتَقِرُّ في الظَّرْفِ المائِدِ

الضَّميرُ المُسْتَتِرُ في ﴿تَمِيدَ﴾ في مَحَل رفع فاعلٌ، وهُو يَعودُ عَلى ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ مِن قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، والقرينةُ عَلى ذَلِكَ قولُه: ﴿بِكُمْ﴾؛ إذِ المَيَدُ إذا عُدّي بالباءِ دالٌّ على أنَّ المَجْرورَ بِها هُو الشَّيْءُ المُسْتَقِرُّ في الظَّرْفِ المائِد[1]، والضَّمير في ﴿بِكُمْ﴾ لِكُلِّ مَن يَصِحُّ خِطابُه، ويجوزُ أن يَخْتَصَّ بِالمُشْرِكينَ؛ لأنَّهُم الَّذين سيقَ هذا الدَّليلُ لِأجْلِهِم.

عِلَّةُ عَطْفِ ﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾:

الاشْتِراكُ في الفِعْليَّةِ والمُسْنَدِ إلَيْهِ جامِعٌ عقليٌّ

عُطِفَ قولُهُ تَعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ عَلى قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ لِما بَيْنَهُما مِنَ التَّوسُّط بينَ الكَمالَيْن؛ لاشْتِراكِهما في الخَبَريَّة، وتَوافُقِهما في الفعليَّةِ والماضَويَّة، واتِّحادهما في المُسْنَدِ إليهِ وهُو الضَّمير المُسْتَتِر في الفِعْلَيْنِ ﴿وَأَلْقَىٰ﴾ و﴿وَبَثَّ﴾ العائد إلى اللّهِ سُبْحانَهُ.

نُكْتَةُ التَعْديَةِ بِحَرْفِ الجَرِّ (في):

شِدَّةُ ارْتِباطِ الدَّوابِّ بِمَقارِّها

عُدّيَ فِعْلُ البَثِّ في قولِ اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ بحَرْفِ الجَرِّ (في) الدّالِّ عَلى الظَّرفيَّة؛ للدّلالة عَلى التَّمَكُّن، إيماءً إلى شِدَّة ارْتِباطِ الدَّوابِّ بِمَقَرِّها - وهي الأرضُ - وانتشارِها في جميعِ جوانبِها، مع دلالةٍ على الكثرةِ والدِّقّةِ في التّوزيع؛ نفعًا للعباد ومادّةً للتأمُّل في الخالق العظيم.

(1) علي، سورة لقمان دراسة بلاغيّة، ص: 1577.

غَرَضُ حَذْفِ المفْعولين:

حَـذْفُ ما دَلَّ السّياقُ عليه اقْتِصادًا في اللَّفْظِ

في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ إيجازٌ بالحَذْفِ، وذَلِكَ أنَّ المفعولَ به للبثِّ محذوفٌ، والتَّقدير: وبَثَّ فيها حَيواناتٍ مِن كُلِّ دابَّةٍ، فحُذِفَ لفظ (حَيوانات)؛ لأنَّ البيانَ الواقِعَ بـ ﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ يدُلُّ عليه ويُرْشِدُ إلَيْه، فكانَ في الحَذْفِ اقْتِصادٌ في اللَّفْظِ، كما حَذفَ النّظمُ المفعولَ له؛ للتّأمُّل في عِلَّة خَلْق الدّوابِّ وما فيها من منافعَ جمّةٍ، بخلاف الرّواسي، إذ نصَّ النّظمُ على العِلّة فيها؛ لصعوبةِ إدراكِها.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِلَفْظِ ﴿كُلِّ﴾:

بَيانُ عَظيمِ قُدْرَةِ اللهِ تَعالى في خَلْقِ الخَليقَةِ وتَفْريقِهِمْ في الأرْضِ

جاءَ التَّعبيرُ بِلَفْظِ ﴿كُلِّ﴾ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾؛ لِبَيانِ عَظيمِ قُدْرَةِ اللّهِ سُبْحانَهُ في خَلْقِ الخَليقَةِ ونَشْرِهم وتَفْريقِهِم في الأرْضِ بِما تَقْتضيهِ حِكْمَتُه، وأنَّ كُلَّ شَيءٍ يَدِبُّ على الأرضِ إلّا واللّهُ تَعالى خالِقُه ومُقَدِّرٌ حَرَكَتَهُ.

نُكْتَةُ تَنْكيرِ لفظ ﴿دَآبَّةٍ﴾:

النَّكِرَةُ في سياقِ الامْتِنانِ مُفيدَةٌ العُمومَ

نُكِّر لفظُ ﴿دَآبَّةٍ﴾ من قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ ليكون أدخلَ في التَّعميمِ المُسْتَفادِ مِن لَفْظِ ﴿كُلِّ﴾؛ وذلكَ لأنَّ الآيةَ واردَةٌ في سياق الامْتِنانِ، والنَّكِرَةُ في سياقِ الامْتِنانِ تَدُلُّ عَلى العُمومِ[1].

فائِدَةُ العَطْفِ في ﴿وَأَنزَلْنَا﴾:

الاشْتِراكُ في الفِعْليَّةِ والمُسْنَدِ إلَيْهِ مُحَسِّناتٌ لِلوَصْلِ

عُطِفَ قولُهُ تَعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ عَلى قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾؛ لِما بَيْنَهُما مِنَ التَّوسُّط بينَ الكَمالَيْن؛ لاشْتِراكِهما في الخَبَريَّة، وتَوافُقِهما في الفِعليَّةِ والماضَويَّة، واتِّحادهما في المُسْنَدِ إليهِ وهُو الضَّمير المُسْتَتِر في الفِعْلِ ﴿وَبَثَّ﴾ العائد إلى اللّهِ سُبْحانَهُ والضَّميرُ (نا) في ﴿وَأَنزَلْنَا﴾، وفي توالي

(1) زكريا الأنصاريّ، غاية الوصول في شرح لبّ الأصول، ص: 75.

ذِكرِ هذه المخلوقاتِ وما فيها من منافعَ دليلٌ قاطعٌ على عِزّة الخالقِ وحِكمته العظيمة، والمؤمنُ يهتدي بهذه الآياتِ البيّنات، والكافرُ يشتري لهوَ الحديث ليضلَّ الناسَ عن سماعِها، وإذا ما سمِعَها ولَّى مستكبرًا عنها.

بَلاغَةُ الالتِفاتِ مِنَ الغَيْبَةِ إلى التَّكَلُّمِ:

مَزيدُ العِنايَةِ بِأمْرِ الإنْزالِ والإنْباتِ

في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ التفاتٌ إلى التَّكلُّم منَ الغَيْبة المذكورةِ في الأفعالِ: ﴿خَلَقَ﴾ و﴿وَأَلْقَىٰ﴾، و﴿وَبَثَّ﴾، والنُّكْتَةُ في ذلكَ إبْرازُ مزيدِ العِنايَةِ بأمْرِ الإنْزالِ والإنْباتِ؛ للاهتمامِ بهاتَيْنِ النِّعْمَتَينِ اللَّتَيْنِ هُما أكثر دَوَرانًا عِنْدَ النّاس[1]، وفي هذا الالتِفاتِ إيقاظٌ ولَفْتٌ لِهَذا المَقْطَعِ المُهِمّ من مَقاطِعِ المَعْنى؛ إذْ إنْزالُ الماءِ مِنَ السَّماء وإنباتُ الزَّرْعِ ممّا تتَعَلَّق بهِ حياةُ الأرْواح وبَقاؤُها في الأرْضِ، إضافَةً إلى أنَّهُ ضَرْبٌ من تَقْسيمِ الأرْزاقِ، فَناسَبَ أن يُنقلَ الإسنادُ إلى ضَميرِ العَظَمَةِ للّهِ تَعالى[2]، وفيه ردٌّ على مَن يعتقد أنَّ إنباتَ الأرض بسببِ نزولِ المطر نتيجةَ تجمُّعِ الغيومِ بحركة الرّياح، وأنَّ ذلك أمرٌ يعودُ إلى الطّبيعة وقوانينها؛ فأظهرَ الفاعلَ المتكلِّم لبيانِ أنَّ كلَّ تلك العواملِ تَجري بأمرِ اللّه تعالى، وما هذه العللُ والأسبابُ إلا أسبابًا ناقصةً جعلَها اللّه تعالى تجري وفقَ حكمةٍ باهرة، بخلاف أفعالِ (الخلق والإلقاء والبثّ)، فهي أفعالٌ إيجاديّةٌ لا يُظَنُّ أنّها تقعُ لعللٍ طبيعيّة، فعبَّر عنها بأسلوبِ الغَيبة الكافي في الإخبار عنِ الإيجاد والخَلْق والإنشاء.

غرضُ ذِكْرِ المُتَعلّق:

تَعْظيمُ شَأنِ النِّعْمَةِ بِالماءِ النّازِلِ مِنَ السَّماءِ

حَرْفُ الجَرِّ ﴿مِنَ﴾ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 153، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 70، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 81، والقِنَّوجي، فتح البيان: 10/ 280، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 146.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 153، وعلي، سورة لقمان دراسة بلاغيّة، ص: 1578 - 1579.

دالٌّ على الابْتِداء، أي: أنَّ ابتداءَ نُزولِ الماءِ حاصِلٌ مِنَ السَّماء، وذلكَ تَرْفيعٌ لِقَدْرِه وتَعْظيمٌ لشَأنِ هذهِ النِّعْمَة؛ فَإنَّ الأشياءَ المُخْبَرَ بِنُزولِها مِنَ السَّماء تدلُّ على مَزيدِ تَشْريفٍ إذا سيقَتْ مَساقَ الامْتِنان، وفي تحديدِ مكانِ النُّزولِ دونَ مكانِ الوصولِ وهي الأرض؛ لبيان أنَّ أمرَ النّزولِ يحتاجُ إلى تفكُّر وانتباه، فإنَّ مَن أنزل الماء إلى الأرضِ ليُحييَها بالنّبات، يرسلُ الأنبياءَ إلى النّاس ليُنبتَ فيها الإيمانَ وأنواعَ الإحسان، بقي أنّ (أل) في ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ مِن قولِ اللهِ تَعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ يُرادُ بها العَهْدُ العِلْميُّ، وهي جهةُ العُلُوِّ والفَوق، وفي ذلك تأشيرٌ إلى مدى العنايةِ والرّعاية الإلَهيّة بما خلقَ، وأنَّ كلَّ تلك الأفعالِ من خلقِ السَّماوات، وإرساءِ الجبال، وبثِّ أصنافِ المخلوقات، وإنزالِ المياه، دليلٌ هُدًى للمؤمنين، وحُجةٌ على الضّالّين والكافرين.

نُكْتَةُ العُدولِ:

بَيانُ نُزولِ الماءِ مِن جهة الفَوق

في قَوْلِ اللهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ عدولٌ عَنِ الجَمْعِ إلى الإفْرادِ؛ لأنَّ الكلامَ عَن إنْزالِ الماءِ مِنَ السَّماء، ولو جُمِعَت السَّماء فَوَرَدَ النَّظْمُ القُرْآنيُّ: (وأنْزَلْنا مِنَ السَّماوات ماءً)؛ لَتُوُهِّم أنَّ المَطَر يَنْزِلُ مِنَ السَّماوات جَميعًا ومن ذواتها، وهذا غيرُ مُرادٍ، إذِ الماءُ إنَّما يَنْزِلُ مِن جهةِ العُلُوِّ، والتّعبيرُ القرآنيُّ عندما تكلَّم عن خلقِ السَّموات جمعَها؛ لأنّه يتكلَّمُ عن ذواتٍ مخلوقةٍ بعينها، ولكنَّه لمّا تكلَّم عن إنزالِ الماءِ منها أفردَها، فتغيَّر النّظمُ؛ لأنّ المراد بالسّماء جهة الأعلى منَ الأرض دونَ ذواتِ المخلوقات، وفي ذلك دليلٌ على أنَّ الإنزالَ لم يكن من ذاتِ السَّماءِ الدّنيا، بل من جهتِها المَرئيَّة.

لَفْتُ نَظَرِ المُتَلَقّينَ لِلخِطابِ القُرْآنيِّ إلى السَّماءِ لِقَصْدِ تَأمُّلِها

بَلاغَةُ المَجازِ:

في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ مَجازٌ مُرْسَلٌ، بعلاقةِ المَحَلّيَّة؛ إذِ المَقْصودُ: أنْزَلْنا مِنَ السَّحاب ماءً، ومحَلُّ السَّحاب في

السَّماء، فأُطْلِقَ المَحَلُّ - وهُو السَّماء - وأُريدَ الحالُّ فيهِ - وهُو السَّحاب -، وفي التَّعبير بالسَّماء إيماءٌ إلى جليلِ العَظَمةِ؛ إذْ هُو يَنْزِلُ مِن مكانٍ لا يَسْتَطيعُ أحدٌ الوُصولَ إليهِ، بالإضافَةِ إلى أنَّ السَّماء الدُّنيا بِما فيها، مِن أظْهَرِ الآياتِ عَلى قُدْرَةِ الخالِقِ سُبْحانَهُ، التي حثَّ القُرْآنُ الكريمُ عَلى النَّظَرِ إلَيْها، والتَّأمُّل فيها كَثيرًا، فَفي التَّعبيرِ بِلَفْظِ السَّماء إيماءٌ إلى لَفْتِهم إلَيْها لفتةَ مُتَأمِّل[1].

غَرَضُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ:

الاهْتِمامُ بِالمُقَدَّمِ والتَّشْويقُ إلى المُؤَخَّرِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ على المَفْعول بِهِ ﴿مَآءً﴾ مِنْ قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾؛ اهتمامًا بالمُقدَّم، وتشويقًا إلى المُؤخَّر، وذلك أنَّ تأخيرَ ما حقُّهُ التَّقديم يجْعَلُ النَّفْسَ مرْتَقِبَةً لَهُ، فإذا وردَ بَعْدُ؛ تَمَكَّنَ عِنْدَها فضلَ تمكُّنٍ، وفي إلقاءِ الرّواسي في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ وإنزالِ الماء من ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ طباقٌ بينَ السّماء والأرض، أُريدَ به أنَّ التّنظيم للمخلوقات كان يتعلَّق بجميع أجزاءِ المكان منَ الأرض وما علاها؛ ليكونَ النّظامُ صالحًا للعيشِ فيه، وفي ذلك آيةٌ للنّاظرينَ والمُتأمِّلين.

نُكْتَةُ التّنْكيرِ في ﴿مَآءً﴾:

عَظَمَةُ الماءِ النّازِلِ مِنَ السَّماءِ لِكَثْرَةِ مَنافِعِهِ

نُكِّر لفظُ ﴿مَآءً﴾ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ لِلبَعْضيَّةِ[2]، أي: أنَّ هذا الماء النّازلَ هو بعضُ نِعَمِهِ، وليس الماءُ النّازلُ إلَّا بعضًا مِن مياهٍ كثيرةٍ[3]، وعبَّر جماعةٌ من أهلِ العلْمِ عَن غرضِ التَّنكير في مِثْلِ هَذا بِبَيان النَّوعيَّة[4]؛ أي: نوعًا من أنواعِ الماء، والغالب أنَّ النَّوعيَّةَ إذا أُطْلِقَت باعتبارِها غرضًا؛ فإنَّه يَلزم مِنْها التَّعْظيمُ، أي: إنَّه نوعٌ عظيمٌ، كأنَّه لعظمَتِهِ مخالفٌ المَعْهودَ مِنَ الأنواعِ، ويجوزُ

(1) علي، سورة لقمان دراسة بلاغيّة، ص: 1578.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 1/ 94.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/ 159.
(4) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 132.

الجَمْعُ بين الغَرَضَيْنِ المَذْكورَيْنِ لعَدَمِ التَّعارُض بَيْنَهُما، وتكثيرًا لِلمَعاني القُرآنيَّةِ، وأنَّ المَعْنى: وأنزلنا مِنَ السَّماء ماءً عظيمًا في ذاتِهِ لِكَثْرَةِ منافعِهِ، ومع ذلك هُو بعضٌ من نِعَمِهِ سُبحانَهُ عَلى خلقِهِ، ونلحظُ في التّنكير أنَّ الماءَ النّازلَ يكونُ بقدرٍ موزونٍ كافٍ للنّظام المعاشيِّ على الأرض، أي: ماءً محدودًا يجري على نظام لا يزيدُ ولا ينقص، وإلّا اختلَّ النّظامُ وغرقتِ المخلوقاتُ وأُبيدتْ.

مَعْنى الفاءِ في قَوْلِهِ: ﴿فَأَنْبَتْنَا﴾:

رَحْمَةُ اللهِ تَعالى وكَرَمُهُ وعَطْفُهُ عَلى خَلْقِهِ

الفاءُ في ﴿فَأَنْبَتْنَا﴾ من قولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ دالَّةٌ عَلى التَّرتيبِ والتَّعْقيب، وفي تَرْتيبِ إنْباتِ الأرْضِ عَلى نُزولِ الماءِ مِنَ السَّماء بالفاءِ إشارَةٌ إلى رَحْمَةِ اللهِ سُبْحانَهُ وكَرَمِه وعَطْفِه على خَلْقِه؛ إذْ إنَّ العَطْفَ بالفاءِ لَمّا كانَ لِلتَّرْتيبِ والتَّعقيبِ؛ كانَ دالًّا عَلى أنَّ الإنْباتَ لا يَتَأخَّر عَن نُزولِ الماءِ، وإنَّما يكونُ في عَقِبِه مُباشَرَةً[1]، وفي ربطِ الإنبات بالإنزال دعوةٌ للتّأمّل في دليلِ وقوعِ المسبَّبات عقيبَ الأسباب، فما على العاقل الفطِن إلّا الإيمانُ؛ إذ كلُّ أفعال الخلق والإلقاء والبثِّ والإنزال دليلٌ على أنَّ وراءها سبب في هذا الجعل والتّنظيم، وهو اللّه تعالى.

نُكْتَةُ إضافَةِ الإنْباتِ:

الإشـــارَةُ إلى عَـظـيـمِ المِـنَّـةِ بِالنَّباتِ

أُسْنِدَ فِعْلُ الإنْباتِ إلى الضَّمير (نا) الدّالِّ على العَظَمَةِ في قولِه سُبْحانَهُ: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾؛ للإيماءِ إلى عَظَمَة هذا الإنْباتِ وجَلالَةِ مُنْبِتِه سُبْحانَهُ، وفي ذلك إيماءٌ إلى عَظَمَةِ المِنَّة بالنَّبات؛ لأنَّ بِهِ قَوامَ عَيْشِ النّاس وبَهائِمِهم، وردّاً على مَن يعتقدُ أنَّ الإنباتَ بسبب نزولِ المطر، وأنّه سببٌ تامٌّ للإنبات، فبيَّن النّظمُ القرآنيّ أنَّ المطرَ ما هو إلّا سببٌ ناقصٌ وعاجزٌ عنِ الإنبات، وأنَّ الإنبات يحدثُ بمحضِ خلق اللّه تعالى، الذي جعل الماءَ سببًا عاديًّا

(1) علي، سورة لقمان دراسة بلاغيّة، ص: 1578.

له لا عقليًّا، إذِ الخالقُ تعالى هو الذي خلقَ الأسبابَ والمُسبَّبات، وربطَ بينهما ربْطًا اقترانيًّا، فلا يحكمُهُ سببٌ في الإيجاد، بل أبدعَ الأسباب كما أبدع المُسبَّبات.

نُكْتَةُ التَّعْديَةِ بِالظَّرْفِيَّةِ:

شِـدَّةُ ارْتِـبـاطِ النَّباتِ بِمَقارِّهِ

عُدّيَ فِعْلُ الإنْباتِ في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٖ﴾ بحَرْفِ الجَرِّ (في) الدّالِّ عَلى الظَّرفيَّة؛ للدّلالة عَلى التَّمَكُّن، إيماءً إلى شِدَّة ارْتِباطِ النَّباتِ بِمَقَرِّهِ وهُو الأرضُ، وفيه تأشيرٌ إلى أهميَّة محلِّ الإنبات - وهو باطن الأرض - القابلِ للإنبات، فلو لم يكن باطنُها صالحًا ما نفعتِ المياه النّازلةُ شيئًا، وفي ذلك تأشيرٌ دقيقٌ على أنَّ نزولَ الماء مظهرٌ واضحٌ لعَظَمتِه، وأنَّ الأرض مظهرٌ خفيٌّ لقدرته.

غَرَضُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ:

الاهْتِمامُ بِالمُقَدَّمِ والتَّشْويقُ إلى المُؤَخَّرِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿فِيهَا﴾ مِنْ قولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٖ﴾؛ اهتمامًا بالمُقدَّم وتشويقًا إلى المُؤخَّر، وذلك أنَّ تأخيرَ ما حقُّهُ التَّقديم يجْعَلُ النَّفْسَ مرْتَقِبَةً لَهُ، فإذا وردَ بَعْدُ؛ تَمَكَّنَ عِنْدَها فضلَ تمكُّنٍ.

بَلاغَةُ الإدْماجِ:

الامْتِنانُ بِما في النِّعَمِ مِنْ مَنافِعَ لِلخَلْقِ

في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٖ﴾ إدماجٌ[1]؛ فقد أُدْمِج في ثَنايا أدِلَّةِ الحِكْمَةِ الامْتِنانُ بِما في ذلكَ مِنْ مَنافِعِ الخَلْقِ، وذَلِكَ أنَّ مِنَ الدَّوابِّ المَبْثوثَةِ ما يَنْتَفِعُ بِهِ النّاسُ مِن أكْلِ لُحومِ ما أُحِلَّ مِنْها، وينتفعونَ أيضًا بِأصْوافِها وجُلودِها وألْبانِها، ويَنْتَفِعونَ بِها في

(1) حَقيقَةُ الإدماج: "إدْخالُ فِكْرةٍ في فكرةٍ، أو غرضٍ بلاغيٍّ في غرضٍ آخر، أو وَجْهٍ من وُجوه البَديعِ في وجهٍ منهُ آخَرَ، بأسلوبٍ مِنَ الكلامِ لا يظهرُ منه إلّا إحْدى الفِكْرَتَيْن، أو أحَدُ الغرضَيْنِ، أو أحَدُ الوَجْهَين، فإذا تأمّل المتفكِّرُ ظهَرَ لَهُ المُدْمَجُ، وسَرَّهُ هذا الإدماجُ"، عبد الرحمن، البلاغة العربيّة: 2/ 427.

الحَمْلِ عَلَيْها والتَّجمُّل بها، ثُمَّ في الإدماجِ امْتِنانٌ بِمَنافِعِ النَّبات مِنَ الحَبِّ والثَّمَر والكَلَأ، ولَمّا كانَتِ البِحارُ مِن جُمْلَةِ الأرْضِ - بالمَعْنى العامِّ -؛ فَقَد شَمِلَ الانْتِفاعَ بِدَوابِّ البحرِ أيضًا[1].

مَعْنى ﴿مِن﴾ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿مِن كُلِّ﴾:

عَظَمَةُ ما عِنْدَ اللهِ تعالى مِنْ جَليلِ النِّعَمِ ودَقيقِها

﴿مِن﴾ في قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ حرفُ جرٍّ دالٌّ على البَعْضيَّة[2]، وهَذا مُفيدٌ عظمَةَ ما عِنْدَ اللهِ سُبْحانَهُ مِن جلائِلِ النِّعَم ودَقائِقِها؛ إذْ كانَ كُلُّ ما على الأرْضِ مِنَ النَّبات هو بَعْضٌ مِمّا عِنْدَهُ، ويحتملُ أنْ تكونَ ﴿مِن﴾ للابتداء، وكأنَّ الإنباتَ يبدأ من مكانِ كلِّ زوجٍ بهيجٍ نافعٍ، فيأتي بتلك النّباتاتِ التي تأخذُ العقلَ واللّبَّ.

نُكْتَةُ التَّعبير بِـ ﴿كُلِّ﴾:

عَظَمَةُ القُدْرَةِ الإلَهيَّةِ في إنْباتِ النَّباتِ

جاءَ التَّعبيرُ بِلَفْظِ ﴿كُلِّ﴾ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾؛ لِبَيانِ عَظيمِ قُدْرَةِ اللهِ سُبْحانَهُ في إنْباتِ النَّباتِ في الأرْضِ بِما تَقْتَضيهِ حِكْمَتُه، وأنَّ كُلَّ شَيءٍ يَنْبُتُ فيها، إلّا واللهُ تَعالى مُنْبِتُهُ وخالِقُهُ.

نُكْتَةُ التّنكير:

النَّكِرَةُ في سياقِ الامْتِنانِ مُفيدَةٌ العُمومَ

نُكِّر لفظُ ﴿زَوْجٍ﴾ من قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ ليكون أدخلَ في التَّعميمِ المُسْتَفادِ مِن لَفْظِ ﴿كُلِّ﴾؛ وذلكَ لأنَّ الآيةَ واردَةٌ في سياقِ الامْتِنانِ، والنَّكِرَةُ في سياقِ الامْتِنانِ تَدُلُّ على العُمومِ[3].

غرضُ الوَصْفِ:

حُسْنُ لَوْنِ النَّباتِ وكَثْرَةُ مَنافِعِه

في وصْفِ الزَّوج بالكريم في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾؛ للإشارَةِ إلى حُسْنِ لَوْنِه وكَثْرَةِ مَنافِعِه، ويجوزُ أن يَكونَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 427.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن الكريم: 21/ 74.
(3) زكريا الأنصاريّ، غاية الوصول في شرح لبّ الأصول، ص: 75.

المُرادُ مَدْحَهُ مِن جِهَةِ إتْقان صُنعِه وظُهورِ حُسْنِ الرُّتْبَةِ والتَّحكيمِ للصُّنْع فيهِ[1].

عِلَّةُ الفَصْلِ:

فُصِلَ قولُ اللهِ تَعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ عَمّا قَبْلَهُ؛ لِوُرودِه نَتيجَةً وحاصِلًا لِما تَقَدَّم مِن ذِكْرِ خَلْقِ السَّماء والأرضِ والجِبال، وبَثِّ الدَّوابِّ وإنْزال المَطَر[2].

خَلْقُ السَّماواتِ والأرْضِ وما فيها وما بَيْنَهُما مِنَ اللهِ تَعالى

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِاسْمِ الإشارَةِ:

في التَّعْبيرِ باسْمِ الإشارَةِ ﴿هَٰذَا﴾ الدّالِّ في الأصلِ على المُشاهَدِ المحسوسِ مِن قولِ اللهِ تَعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ إيماءٌ إلى ما يُشاهِدونَهُ مِن مَخْلوقاتِ اللهِ تعالى؛ إذِ المُشاهَدُ أدَلُّ على عظَمَةِ اللهِ تَعالى، وليسَ في تَأمُّله كبيرُ عناءٍ، فليس الدّليلُ على وجودِ اللهِ تعالى وكمالِ قُدرته دليلًا عقليًّا مَحضًا، بل هو من نوعِ العلم الإحساسيّ المُدْرَك بالحواسّ، المُتميِّز أكملَ تمييزٍ لكلِّ مَن شاهد وتأمَّل في المشاهدات، وفي انتقاءِ اسْمِ الإشارَةِ ﴿هَٰذَا﴾ الدّالِّ عَلى القُرْبِ تَنْبيهٌ إلى أنَّ هذهِ النِّعَمَ إنَّما وُجِدَت مِن أجْلِ الإنْسانِ، وفي مُتناوَلِ يدِه، وهَذا أدْعى لشُكْرِ المُنْعِمِ بها، والاعترافِ لَهُ بالفَضْلِ فيها[3].

كَوْنُ النِّعَمِ في مُتَناوَلِ يَدِ الإنْسانِ أدْعى لِشُكْرِ المُنْعِمِ بِها

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالمَصْدَرِ:

لَفْظُ ﴿خَلْقُ﴾ مصدرٌ لِلفِعْلِ خَلَقَ أُريد الحاصلُ به، ولَمّا كانَ المَقْصودُ في الآيةِ نظرَ الإنسانِ إلى هذهِ المَخْلوقاتِ نَظْرَةَ اعْتِبارٍ لا نَظْرَةَ اسْتِحْسانٍ؛ جاءَ التَّعبير بالمَصْدَرِ، فقالَ اللهُ تَعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾؛ للتَّوْجيهِ إلى نوعِ النَّظَرِ المَطْلوبِ، وهُو نظرٌ إلى طريقَةِ

الحَثُّ على النَّظَرِ إلى طَريقَةِ الخَلْقِ والإبْداعِ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 347، والقِنَّوجي، فتح البيان: 10/ 280.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 147.
(3) علي، سورة لقمان دراسة بلاغيّة، ص: 1580 - 1581.

الخَلْقِ والإبْداعِ، وإلى الدِّقَّة والحِكْمَة في خَلْقِها، وطريقَةِ تَناسُقِها فيما بَيْنَها، بِحَيْثُ لا يَتَعارض شَيْءٌ مِنْها مع آخَر[1].

نُكْتَةُ الإضافَةِ:

لا يَصْدُرُ مِنَ العَظيمِ إلّا عَظيمٌ

أُضيفَ لَفْظُ الخَلْقِ إلى الاسْمِ الأحسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾ في قولِ اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ من بابِ إضافَةِ المَصْدَرِ إلى فاعِلِهِ، والخَلْقِ بِمَعْنى المَخْلوقِ، أي: هَذا مَخْلوقُهُ، والإضافَةُ هاهنا تَقْتَضي التَّعظيمَ؛ لأنَّ العظيمَ لا يَصْدُرُ مِنْهُ إلّا العظيمُ، فخَلْقُ اللّهِ سُبْحانَهُ جليلُ القَدْرِ عظيمُ الشَّأن كاملُ الصُّنْع[2].

بَلاغَةُ الالتِفاتِ مِنَ التَّكَلُّمِ إلى الغَيْبَةِ:

إدْخالُ الهَيْبَةِ بإظْهارِ الاسْمِ الأحْسَنِ (الله)

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ التِفاتٌ مِنَ التَّكَلُّم إلى الغَيْبَة، وكانَ مُقْتَضى الظّاهِرِ أن يَرِدَ النَّظْمُ القُرآنيُّ: (هذا خَلْقُنا)؛ لأنَّه قالَ قبلُ: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾، ونُكْتَةُ الالتفات: زيادَةُ التَّصريح بأنَّ الخِطاب صادِرٌ مِنَ اللّهِ تعالى[3]، ولإدخالِ الهَيْبَة بإظْهار الاسْم الأحْسَن ﴿ٱللَّهِ﴾؛ فإنَّه الاسْمُ الجامِعُ لِصِفاتِ الجلال والكَمال والجَمالِ.

معنى الفاءِ في قوله: ﴿فَأَرُونِي﴾:

طَيُّ ما دَلَّتِ القَرائِنُ عليه اقْتِصادًا في اللَّفْظِ

الفاءُ في ﴿فَأَرُونِي﴾ من قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ فصيحةٌ؛ لأنَّها أفْصَحَت عن شَرْطٍ مُقَدَّر، والتَّقديرُ: إنِ ادَّعَيْتُم لِما دُونَهُ مِمّا عَبَدْتُموهُ من دونِهِ خَلْقًا عَبَدْتُموه مِن أجْلِه؛ فأروني ماذا خَلَقَ الذين مِن دونِه[4].

دلالَةُ الأمْرِ:

فِعْلُ الأمْرِ ﴿فَأَرُونِي﴾ من قولِ اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ

(1) علي، سورة لقمان دراسة بلاغيّة، ص: 1581.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 154، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 70، وعلي، سورة لقمان دراسة بلاغيّة، ص: 1582.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 147.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 154.

التَّهَكُّمُ أسبَقُ لِلقَطْعِ بِعَدَمِ تَمَكُّنِهِمْ مِنْ مُكافَحَةِ اللهِ تَعالى

﴿ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ لا يُرادُ حَقيقَتُهُ مِن إرادَةِ الإلْزامِ بالفِعْلِ، وإنَّما المُرادُ بِهِ التَّهَكُّم؛ لِكَوْنِهِم لا يُمْكِنُ لَهُم أن يُكافِحوا اللّهَ سُبْحانَهُ، وفي الأمْرِ مَعْنى التَّعْجيزِ أيضًا؛ إلّا أنَّ التَّهَكُّم أسبَقُ للجَزْمِ بِعَدَمِ تَمَكُّنِهِم مِنْ مُكافَحَةِ اللّهِ تَعالى، قَبْلَ القَطْعِ بِعَجْزِهِم عَن تَعْيينِ مخلوقٍ خَلَقَهُ مِن دونِ اللّهِ سُبْحانَه[1].

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالرُّؤْيَةِ البَصَريَّةِ أو القَلْبيَّةِ:

أثَرُ اخْتِلافِ مَعاني الأفْعالِ في إثْراءِ المَعاني القُرْآنيَّةِ

الرُّؤية في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ يَجوزُ أن تَكونَ بَصَريَّة، ويجوزُ أن تكونَ عِلْميَّةً قَلْبيَّة، وكَوْنُها بصريَّةً أشَدُّ في إثباتِ عَجْزِهِم؛ لاسْتِلْزامِها الاقْتِناعَ مِنْهُم بإحْضارِ شَيْءٍ يَدَّعون أنَّ آلهتَهُم خَلَقَتْهُ[2].

بَلاغَةُ الاسْتِفْهامِ:

العاجِزُ عَنِ الخَلْقِ لا يَسْتَحِقُّ الأُلوهيَّةَ

الاسْتِفهامُ في قولِ اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ يُراد بِهِ المُبالَغَةُ في التَّهَكُّم والتّعجيز؛ لأنَّ هذا السُّؤال التّقريريَّ يُلجِئُهُم إلى الإقْرارِ بِعَدَمِ إلَهيَّة مَن عَبَدوهُم مِن دونِ اللّهِ تَعالى بِطَريقِ الكِنايَةِ والاسْتِدلالِ؛ لأنَّهُ إذا لَم يَثْبُت أنَّهم قَد خَلَقوا شَيْئًا؛ فَهَذا يَقْتَضي أنَّهُم لَيْسوا آلِهةً، فإذا وُجِدَ مَن يَعْبُدُهم مِن دونِ اللّهِ تَعالى وحالُهُم ما ذُكِر؛ فَهُو في ضلالٍ مُبينٍ[3]، والمُستفهَم عنه هو الاسم الموصول (ذا)، المُرتبطُ بصلته، وهي جملةٌ فعليّةٌ بصيغة الماضي الدّالِّ على التّحقُّقِ والوقوع؛ والعائدُ إليه محذوفٌ تقديرُه (خلقَهُ)، أي: ما الّذي خلقَه الَّذين من دونه، والموصولُ المسؤولُ عنه صراحةً وإضمارًا دالٌّ على أيِّ شيءٍ مخلوقٍ لغير اللّه أنْ يُجيبوا بإثباتِه، لكنَّهم عاجزونَ عن إثباتِ التّخليقِ لغيره.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 147.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 147.
(3) علي، سورة لقمان دراسة بلاغيّة، ص: 1583.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بالاسْمِ المَوْصولِ وصِلَتِهِ:

حَقارَةُ الأصْنامِ وخِسَّتُها وضَعْفُها

في التَّعبير بالاسْمِ المَوْصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ الموضوع للعقلاء الذّكور وصِلَتِه مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾، احترازٌ عنِ التَّصْريح بِذِكْرِ أصْنامِهِم؛ قَصْدًا إلى احْتِقارِها وبيانِ خِسَّتِها وضَعْفِها[1]، وإنَّما جعلَها عاقلةً قصدًا إلى مجاراة الخصمِ في ادِّعاء العلْم والنَّفع والضَّرر لها من دون اللّه تعالى[2].

مَعْنى ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾:

مَجيءُ البَيانِ بَعْدَ الإبْهامِ أوقَعُ في النَّفْسِ وأمْكَنُ

حرفُ الجرِّ ﴿مِن﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ بيانيَّةٌ؛ لتقدُّم الاسم المَوْصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وفيهِ إبهامٌ، فجاءَ بيانُهُ بِـ ﴿مِن دُونِهِۦ﴾، والحَرْفُ ﴿مِن﴾ يَجُرُّ اسمَ المكانِ عَلى وجْهِ الزِّيادَةِ؛ لِتَأكيدِ الاتِّصالِ بالظَّرف[3].

بلاغَةُ الكِنايَةِ:

ما عُبِدَ مِنْ دونِ اللهِ تَعالى في مَرْتَبَةٍ أقَلَّ مِنْ رُتْبَةِ الرُّبوبيَّةِ

(دون) في قول اللّه تعالى: ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ كنايةٌ عنِ الغير[4]، فالمَعْنى: فَأروني ماذا خَلَقَ الذينَ مِن غيرِهِ، وفي التَّعْبير بلَفْظِ (دون) إيماءٌ إلى أنَّ ما عُبِدَ مِمّا سِوى اللّهِ تَعالى هُم في مَرْتَبةٍ أقَلَّ مِن رُتْبَةِ الرُّبوبيَّة والأُلوهيَّة، وفي هذه الدّونيَّةِ إشعارٌ بالعجْزِ وإعلانٌ بالنّقص؛ ليكون باعثًا لهم على التّأمُّلِ في الإلهِ الحقِّ، الَّذي يستحقُّ العبوديّةَ والخضوعَ له.

دلالَةُ إضافَةِ (دون) إلى الضَّميرِ الغائِبِ:

الإيماءُ إلى سُفولِ رُتْبَتِهِمْ

في إضافَةِ لَفْظِ (دون) إلى ضَمير الغَيْبَة في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ تنبيهٌ عَلى سُفولِ رُتْبَتِهِم؛ إذْ لَيْسَ فيما أُسْنِدَ إلى الاسْمِ الأحسَنِ (اللّه) جِهَةٌ يُخْشى مِنَ التَّقْييدِ بِها نقصٌ ما[5].

(1) علي، سورة لقمان دراسة بلاغيّة، ص: 1582.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 147.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 147.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 148.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 154.

مَعْنى ﴿بَلِ﴾:

﴿بَلِ﴾ في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ للإضْرابِ، وهُو هُنا إضْرابٌ انتقاليٌّ، فقد انْتُقِل مِن غرضِ المُجادلَةِ إلى غرَضِ تَسْجيلِ ضَلالِهِم وانْحِرافِهِم في اعْتِقادِهِم إلَهيَّة الأصنامِ، وفي هذا الإضْرابِ: تَبْكيتُهُم بِما نُصَّ عليه مِن ضَلالِهِم والإعْلامِ ببُطْلانِ ما هُم عليه[1].

تَسْجيلُ ضَلالِهِمْ وانْحِرافِهِمْ في اعْتِقادِهِمْ إلَهيَّةَ الأصْنامِ

مَعْنى (أل) في ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

(أل) في ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ مِن قولِ اللهِ سُبْحانَهُ: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ حرفٌ دالٌّ عَلى الجنسِ والكَمالِ، أي: الظّالِمون العَريقونَ في الظُّلْمِ الكامِلونَ فيهِ[2].

ذِكْرُ حالِ العَريقينَ في الظُّلْمِ

بلاغَةُ وضْعِ المُظْهَرِ مَوْضِعَ المُضْمَرِ:

في قولِ اللهِ تَعالى: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ وضْعٌ لِلمُظهرِ مَوْضِعَ المُضمرِ، وكانَ مُقْتَضى الظّاهرِ أن يَرِدَ النَّظم القرآنيّ: (بَل هُم في ضلالٍ مُبين)، والنُّكْتَةُ في ذَلِكَ: الدّلالة بأنَّهُم بِسَبَبِ شِرْكِهِم واضِعونَ الشَّيءَ في غيرِ مَوْضِعِه ومُجاوِزون الحدَّ وظالِمونَ لِأَنْفُسِهِم بِتَعْريضِها لِلعذابِ الدّائمِ، وفي الإظْهارِ تَعْميمٌ لِكُلِّ مَن اتَّصف بوصْفِ الظُّلْمِ، وتنبيهٌ عَلى أنَّ وصفَ الظُّلْمِ هُو الذي أوجَب لَهُم كَوْنَهُم في ضَلالٍ[3]؛ لأنَّ تعليقَ الحُكمِ عليهِم بالضَّلال على المشتقِّ دالٌّ على علِّيَّتِه فيه.

الظُّلْمُ موجِبٌ لِلكَوْنِ في الضَّلالِ

دلالَةُ الظَّرْفيَّةِ:

حرفُ الجَرِّ ﴿فِي﴾ مِن قولِ اللهِ ﷻ: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ دالٌّ على الظَّرْفيَّةِ المَجازيَّة، وهو مُفيدٌ أنَّ ضَلالَهُم قَدِ اكْتَنَفَهُم

شِدَّةُ مُلابَسَةِ الضَّلالِ لِلظَّلَمَةِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 155، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 70، والقِنَّوجي، فتح البيان: 10/ 280، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 148.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 155.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 155، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 81.

وأحاطَ بِهِم في جَميعِ أحْوالِهِم، فَهُو لِشِدَّة مُلابَسَتِه إيّاهُم كأنَّهم داخِلونَ فيهِ[1]، ففي جعلِ (الضّلال) - وهو أمرٌ معنويٌّ - مكانًا حسّيًّا يدخلُهُ الظّالمون استعارةٌ مكنيّةٌ، بتشبيه الضَّلال بدهليزٍ عميقٍ يحيطُ بالظّالمينَ ويَتيهون فيه، ثمَّ حَذَفَه وأبقى من لوازمه ﴿فِي﴾ الدّالّةِ على الظّرفيَّة؛ لتكون قرينةً على الاستعارة، ونلحظُ أنّ هنالك طباقًا حرفيًّا خفيًّا بين حالِ المؤمنين بأنَّهم ﴿عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾، وحالِ الظّالمينَ بأنَّهم ﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾، كما خالفَ بين ذِكر المؤمنينَ بـ(اسم الإشارة: أولئك) الدّالِّ على عَظَمةِ الرُّتبة، وذكرِ الظّالمينَ بذكرِهم بوصفِهم دونَ إشارةٍ إليهم؛ تحقيرًا وازدراءً بحالِهم.

نُكْتَةُ التّنكيرِ:

نُكِّر لفظُ ﴿ضَلَٰلٍ﴾ في قولِ اللّه سُبْحانَهُ: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ لإفادَةِ التَّعْظيم، أي: هُم في ضَلالٍ عظيمٍ جِدًّا مُحيطٍ بِهِم[2].

بَلاغَةُ المَجازِ:

شِدَّةُ انْحِرافِهِمْ وخُطورَةُ شِرْكِهِمْ

﴿مُّبِينٍ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يَحْتَمِلُ أن يكونَ بِمَعْنى: الوُضوح، والمَعْنى: بَلِ الظّالمونَ في ضَلالٍ واضِحٍ، وهَذا لِشِدَّة انْحِرافِهِم وعَظيمِ شِرْكِهِم، ويَحْتَمِلُ أن يكونَ بِمَعْنى المُظْهِر، أي: إنَّ الظّالمينَ في ضلالٍ مُظْهِرٍ حالَهُمْ بينَ النّاسِ، وإسْنادُ الإبانَةِ للضَّلال مجازٌ عَقْليٌّ على جِهَةِ المبالغَةِ.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِـ﴿مُّبِينٍ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

فَسادُ عُقولِ المُشْرِكينَ بِحَيْثُ إنَّهُمْ عَمُوا عَنِ الضَّلالِ مَعَ شِدَّةِ ظُهورِهِ

في التَّعبيرِ عَن الضَّلال بأنَّهُ ﴿مُّبِينٍ﴾ في قولِ اللّه تَعالى: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ إيماءٌ إلى شِدَّة ظُهور ضَلالِهِم، وأنَّ عُقولَهُم وصَلَت مَبْلَغًا عَظيمًا مِنَ الفَسادِ؛ حيثُ لَم يَرْعَووا عَن هذا الضَّلال، معَ أنَّه ظاهِرٌ غايَةَ الظُّهور، وفي التَّعبيرِ بِصيغَةِ ﴿مُّبِينٍ﴾ -

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 148.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 155.

وهيَ في الأصلِ اسمُ فاعلٍ مِنْ (أبانَ) - مُبالغةٌ في وُضوح ضَلالِهِم؛ لأنَّه إذا كانَ مبيِّنًا لضَلالِهِم وانْحِرافِهِم؛ فكَوْنُه بيِّنًا في نَفْسِه مِن باب أولى.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإنْباتُ والزَّرْع:

الإنْبات إخْراجٌ والزَّرْعُ إدخالٌ

الإنْباتُ: إفْعالٌ مِنَ النَّباتِ، والمرادُ: إخراجُ النَّبات مِنَ الأرضِ، والنَّباتُ يَعُمُّ كُلَّ ما يَخْرُجُ مِنَ الأرضِ، سواءٌ أكانَ لَهُ ساقٌ أم لَم يَكُن له ساقٌ[1]، أمّا الزَّرْعُ؛ فيُطلقُ على أمرَين؛ أحدُهما: أن يكون اسمًا، والمراد بِهِ المَزْروعُ، وهُو ما يَنْبُت عَلى غَيْرِ ساقٍ ممّا يَخْرُج مِنَ الأرْضِ[2]، والآخَرُ: أن يكونَ مَصْدَرًا، والمُرادُ بِهِ: وضْعُ البَذْرِ في الأرْضِ بِقَصْدِ النَّماء، والفَرْقُ بينَ الإنْباتِ والزَّرع بِمَعْناهُ المَصْدَريِّ أنَّ الإنباتَ إخراجٌ، والزَّرعَ إدخالٌ.

وقَد يُطلق الزَّرعُ على الإخراجِ، ومِنْهُ قولُ اللّهِ تَعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة: 63 - 64]، فنَسبَ اللّهُ تعالى الحَرْثَ إلى العِباد، ولكنَّه نفى عَنْهُمُ الزَّرع ونسبَهُ إلى نَفْسِه سُبْحانه، وإذا نُسِب الزَّرْعُ إلى العَبْدِ؛ فَلِكَوْنِه فاعِلًا لأسْبابِهِ[3].

(1) الرّاغب، المفردات: (نبت).
(2) الرّاغب، المفردات: (زرع).
(3) الرّاغب، المفردات: (زرع).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والأربعون،
سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والأربعون، سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 43 ، 816 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-94-5
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 43 : المجلد الثالث والأربعون، سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-94-5
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9381682 بتاريخ 2024/12/31م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»